حوار مع:

د. مسفر بن علي القحطاني

حاوره: الدكتور عبد الرزاق بلعقروز

رئيس التحرير

في البداية، لك كل الشكر على قبولك إجراء هذا الحوار، مع مجلة نماء لعلوم الوحي والدّراسات الإنسانية، وفي البدء كسُؤال مَعْهُود في هذه الحواريات العلمية: كيف يقدّم د. مسفر بن علي القحطاني مساره الذّاتي والمعرفي للمنشغلين بالشّأن المعرفي؟

في البداية أود تقديم جزيل الشكر والامتنان لإتاحة الفرصة للحديث عبر منبركم الفكري المميز، مع الشكر أيضًا لحسن ظنكم الكريم بشخصي الضعيف، أما عن مسيرتي المعرفية فيمكن اختصارها في المحطات التالية: فقد تخرجت في كلية الشريعة التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فرع الأحساء تلك الواحة المتنوعة بالثراء المذهبي حيث تتواجد المدارس الفقهية الأربعة بشيوخها وطلابها منذ عشرات العقود وذلك عام (١٩٩٢م)، ثم أكملت الماجستير في السياسة الشرعية من المعهد العالي للقضاء بالرياض عام (١٩٩٥م)، وأنهيت الدكتوراه في أصول الفقه عام (٢٠٠١م)، من جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وفي عام (٢٠١٣م) حصلت على درجة الأستاذية بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن التي أدرس فيها منذ (٢١ عامًا).

لدي عدد من الأبحاث والكتب المنشورة تصل لأربعة عشر كتابًا تتمحور في الدراسات التأصيلية وتنزيلاتها الواقعية مع محاولة الربط بالتجارب المماثلة في الثقافات الأخرى.

يتبدّى للناظر في مسيرتكم المعرفية اهتمام مزدوج بنمطين من المعرفة: المعرفة التراثية الإسلامية، والمعرفة الحديثة بخاصة مجالات العلوم الإنسانية، فما هي المنهجية التي تجَسّرون بها هذه العلاقة بين المأصول والمنقول؟ أو بين الموروث والحديث؟

قديمًا اعتبر الإمام الغزالي -رحمه الله- علم أصول الفقه من أشرف العلوم؛ لأنه جمع بين المنقول والمعقول وامتزج فيه الرأي بالسمع، وعادةً ما تكون مزاوجة العلوم تثمر إبداعًا وتجديدًا، وفي مسيرتي في الطلب والبحث حاولت أن أستفيد من تجارب من سبق من أهل العلم في ترسيخ منهجية التأصيل خدمةً لقضايانا المعاصرة، ففي عام (١٩٩٦م) نشرت ثلاثة كتيبات لترشيد الصحوة آنذاك وهي: فقه الموازنات، وفقه الحقائق، وفقه الاستطاعة، وكان الهدف منها تقريب الأصول لجيل الصحوة المتأثر بالوعظ والعاطفة حتى في مجالات العلم، والحركية المتحزبة حتى في بلاغ الدين العام، والتمحور حول الشيخ أو المدرسة الدعوية ولو على حساب القيم العليا للمجتمع، وللأسف تلك الرسائل كانت مرتبطة بدار نشر أقفلت نشاطها وتوقفت الكتيبات عن البيع ولم أعد نشرها وربما دورها كان مناسبًا لزمانها والأطروحات المتداولة آنذاك. ومع ذلك، وفي الصدد ذاته، خرج كتاب «أثر المنهج الأصولي في ترشيد العمل الدعوي» عن طريق الشبكة العربية للأبحاث والنشر ليعالج قضايا أصولية تطبيقية وبشكل مباشر في الساحة الحركية، كقضية المصلحة الدعوية المتقلبة، والاجتهاد الدعوي المنغلق، والغفلة عن مقاصد الشريعة.

أما العلوم الإنسانية الأخرى وخصوصًا علم الاجتماع والنفس والسنن الكونية وغيرها، فأظن أن لها قيمة عليا وأهمية كبرى خصوصًا في فهم بعض النصوص التراثية من خلال سياقاتها الاجتماعية والبيئية، ومن خلالها نستطيع التمييز والفهم للكثير من الاجتهادات، ولا أبالغ إن قلت حتى الترجيحات الفقهية لا ينبغي أن تنفك عن مدركات تلك العلوم، فعلى سبيل المثال لو رجعنا إلى كتب ابن تيمية -رحمه الله- والجدل الواسع حولها خصوصًا أنها مجال استشهاد طوائف متعارضة، ولكن معاودة قراءتها وفق دوافع التأليف التي أثارت ابن تيمية لكتابتها والبيئة السياسية والاجتماعية والتحديات التي يمر بها الشام آنذاك؛ لعرفنا سبب الشدة على الخصوم تارة والدعوة للتسامح تارة أخرى، ولماذا المفاصلة

مع طائفة واللين مع أخرى، والترخص في مسائل والتحوط في مسائل أخرى، وهذا النظر العلوي للساحة المعرفية الذي يُظهر كافة المؤثرات والتضاريس ويكشف الطبيعة من أعلى هو ما يسهم في تحويل التراث إلى مادة دافعة للتطوير وليست مجرد قيد يربطنا بالماضي ويشدنا نحوه.

والعلوم الإنسانية في الحقيقة نتجت قديمًا عند المسلمين ولكنها نضجت وتطورت في الكتابات الغربية من بعد القرن الثامن عشر، ولعل ما كتبه هيجل في التاريخ والاجتماع ومثله دوركايم وماكس فيبر وغيرهم يعرف قيمة تلك المنجزات العلمية التي لو وُظفت في الدراسات الإسلامية لأثمر هذا التلاقح فوائد معرفية على واقعنا المعاصر.

تتوارد في نصوصكم عائلة من المفاهيم تعكس همًّا حضاريًا، وإرادة في إعادة بناء منظومة العمران في الأمة المسلمة؛ مثل: الوعي، الوعي الحضاري، التحضّر، ما هو مفهوم الوعي الحضَاري الذي تقصدون؟ وهل ترون أن خطاب الحضارة والتحضر ما زال يملك مشروعية بعد أن سادت مفردات الحداثة والنهضة والتجديد؟

بدأت اهتماماتي بفقه العمران من عام (٢٠٠٥م) واطلعت خلالها على عشرات الكتب في هذا المجال مثل ما كتبه مالك بن نبي وعلي شريعتي وطه عبدالرحمن والجابري والنجار وغيرهم، ومثلهم من الغربيين كوِلّديورانت ولوبونو وتوينبي، وقد ظهر لي ضعف التأصيل للمفهوم العمراني باحتياجاته المعاصرة في بيئتنا الخليجية، وحاولت بجهد المقلّ أن أكتب في هذا الصدد ووضع بعض الأفكار من خلال كتبي التالية: وأولها كان كتاب «كلمات في الوعي»، وهو عبارة عن مقالات كنت أكتبها في موقع الإسلام اليوم جمعوها مشكورين في كتاب، ثم حاولت أن أعمق مفهوم التحضر في كتاب (الوعي الحضاري)؛ لأننا أحوج إلى الغوص في الوعي أكثر من ترديد المسكنّات الفكرية بأننا أفضل أمة وخير الشعوب دون أن يقابلها معالجات ونقد وخارطة طريق، وكنت أرى أن مقاصد الشريعة هي بوابة هذا الإصلاح، ولعل كتابي (الوعي المقاصدي) محاولة لتوضيح هذه الرؤية. هذه المقاربات الاجتهادية ما زلت أعتقد بأنها أهم خيارات المرحلة، وما ينبغي تسليط الضوء عليه وإثارة النقد والمراجعة لخطابنا الديني المنغلق حوله، وربما يدفع هذا الجدل العمراني والحضاري توجيه بوصلة التيارات الفكرية من التطاحن حول

الهوامش والماضي إلى تقديم أطروحات ناضجة لمشاريعنا الحضارية الحاضرة والقادمة.

ماذا يناهض د. مسفر بن علي القحطاني نزعة الأنسنة كما ينادي بها البعض، بخاصة تلك الأنسنة التي تجمع بين أصل تراثي يمثله التوحيدي ومسكويه، وأصل حداثي نجده في النزعة الإنسانية الحداثية؟ هل نحن أمام إعادة بناء للمفاهيم مثل مفهوم الأنسنة ومفهوم التنوير أم أننا أمام نقد جذري وممانعة معرفية؟

* مفهوم الأنسنة أو التنوير من أهم المفاهيم التغييرية التي شكلت حراكًا فلسفيًا وفكريًا في أوروبا بعد عصر النهضة، وتم تمريرها في محيطنا الفكري في نهاية القرن التاسع عشر ولكن من خلال نقل مشوّه وموظف أيديولوجيًا بما يخدم توجهات تلك الفترة الاستعمارية، وأصبحت تلك المفاهيم في واقعنا العربي دلالة سيئة على عصر الخذلان والاستعمار والتبعية العمياء، ولكن عند التدقيق وتجريد تلك المفاهيم الإصلاحية من تبعاتها المشوهة فإننا أمام أفكار صحيحة ومهمة لخلق حراك فكري إيجابي، فالأنسنة بخلاف قراءة الدكتور أركون؛ لها امتداد في عمق الشريعة الإسلامية من خلال مفهوم الفطرة الذي يعتبر أهم مرتكزات المقاصد الشرعية التي هي غاية الدين ومطلوبه، كما قرر ذلك ابن عاشور -رحمه الله- في كتابه المقاصد ومستشهدًا بما كتبه قبله ابن سينا رحمه الله، وهذا المعنى الخلّاق أعتقد أن استثماره في ترسيخ قاعدة إنسانية أساسها الفطرة الطبيعية يردنا نحو مناخ فكري صحي وقيمي يساعد على بناء قواسم مشتركة مع الآخر أيًا كان. أما التنوير فسمعته بعد كتابات بعض الرموز الصحوية يجعله في نقيض الدين ويصنفه من ضمن مشاريع التغريب للأمة، وأظن كذلك أن هذا المفهوم نحتاج إلى إزالة تلك الالتباسات التصنيفية عنه ورده لأصله اللغوي والتاريخي في بعث التجديد للأمة، فبعثة النبي عليه الصلاة والسلام هي بداية التنوير للعالم، ولكل أمة عصرها التنويري الذي يُرجع إليه فضل النهضة التي حصلت بعده، كما سمي عصر ميجي باليابان بعصر النهضة، فمعنى ميجي هو المتنور باليابانية، فحصر المعنى على أوروبا في موقفها ضد الدين اختزال كبير لهذا المصطلح، علمًا بأن التنوير الأوروبي هو الأشهر والأهم في عصرنا الحديث وله فضائل عديدة يحسن أن ننظر إليها ونفيد

منهـا في خدمـة منهـج النهـوض والتغيـير في مجتمعاتنـا الإسـلامية، وعمومًـا هـذه المصطلحـات وغيرهـا تحتـاج إلى مراجعـة وحـرث أركيولوجـي ينبـش وينقـد مـا مـضى ويطـور تلـك المعـاني بشـكل منهجـي، وللأسـف هـذا المجـال البحثـي يضعـف في سـاحاتنا الفكريـة والثقافيـة فـلا نعطـي لمطبـخ المفاهيـم أهميتـه عنـد التنظـير وصناعـة المشـاريع، ولعـل القـارئ يجـد في كتـابي (صـدام القيـم) بعضًـا مـن تلـك الأفـكار والـرؤى.

يتميّـز الواقـع الإنسـاني المعـاصر بالتحـول، هـذا التحـول يعكـس مـن جهـة أزمـة النمـوذج الحضـاري الغـربي، ومـن جهـة أخـرى بـروز محـاولات للتغلـب عـلى هـذه الأزمـة الحضاريـة، سـواء مـن داخـل النمـوذج الحضـاري الغـربي أو مـن الرؤيـة الحضاريـة الإسـلامية؟

كيـف يصـف د. مسـفر بـن عـلي القحطـاني حـال الوعـي الغـربي الراهـن؟ ومـا هـي مشروعيـة القـول بـأن فكـرة المدافعـة الحضاريـة تمكـن الإسـلام مـن الأخـذ بزمـام التاريـخ وقيـادة الإنسـانية نحـو قيـم العمـران مـن جديـد؟

الوعـي الغـربي المعـاصر نشـط ونقـده لذاتـه متجـدد، وفي كل مركـز بحثـي وجامعـة يشـهد المطلـع عـلى حجـم المنجـزات والمراجعـات الهائلـة لـكل قضيـة ذات اهتـمام محـلي أو عالمـي، وهـذا مـا نفتقـده في مراكزنـا القليلـة في عالمنـا العـربي، وبالرغـم مـن التحديـات التـي تواجـه الوعـي الغـربي والشـيخوخة التـي يعـاني منهـا فإنـه كـما وضحـت سـابقًا الأكـثر حيويـة وحـراكًا في العـالم.

وموقفنـا الإسـلامي في التعامـل مـع منجـزات الوعـي الغـربي لـه حـالات: فالبعـض يتماهـى مـع الثقافـة الغربيـة لدرجـة الذوبـان، وعكسـهم مـن يـرى ضرورة المفاصلـة وجعـل العـداوة هـي الأصـل في كل شيء، بينـما المنطقـة الخـضراء العريضـة هـي تلـك التـي تقـوم عـلى التبـادل والتثاقـف؛ لأنـه الأصـل في طبائـع الشـعوب القائمـة عـلى التعـارف، وهـو المعنـى القـرآني الـذي ذكـره اللـه -تعـالى- فيـما ينبغـي رسـمه مـن علاقـة بـين الشـعوب والقبائـل، وفكـرة المدافعـة التـي جـاء بهـا القـرآن هـي تحقيـق لهـذا العلاقـة التعارفيـة، فالمدافعـة مشروطـة بالتـي هـي أحسـن، تحقيقًـا لمنفعـة التبـادل بـين الثقافـات والحضـارات، عـلى مسـتوى العلـوم والمعـارف والمصالـح الحيويـة، وفي كتـابيّ: (صـدام القيـم) و(سـؤال التدبـير)، إشـارات تـشرح تلـك الأفـكار.